ماضى القرويين وحاضرها*

للأستاذ عبد الله كنون الحسنى

— ٢ —

ولم يصل الاشتغال ببقية العلوم الاسلامية بالقرويين إلى درجة الاشتغال بالفقه ولكنه لم يقصر عنها كثيراً ؛ فكانت علوم الحديث والتفسير والأصول مما لم ينقطع تدريسه فى الكلية فى أى عصر حتى العصور المتأخرة. حين كان بعض هذه العلوم فى بلاد أخرى لايقرأ إلا للتبرك بسرده. وكانت هذه الدراسة مجال البحث والاستنتاج وفرصة المحاضرات القيمة فى التربيـــة والتهذيب، وحسبك أن تقرأ وصف مجلس من مجـالس العلامة أبى القاسم البدوسى الذى قضى التونسيون العجب منه فى ذلك الوقت وأن تعلم أن ابن الصباغ أحد رجال هـذه الجامعة أملى على حديث : ياأبا عمير ما فعل النغير ٤٠٠ فائدة

(مدينة فاس التى يوجد بها جامع القرويين)

ومن ثبت أسماء النابهين فى هذه العلوم وأسماء مؤلفاتهم تدرك مبلغ القيام الذى كان لأهل القرويين عليها . ونحن نذكر بعض البعض ممن نعرفهم ونعرف انقطاعهم فى الكلية الذى تنقطع دونه الاطماع، ولا يمنعنا من التبسط فى شرح ذلك إلا إرادة الايجـاز وخوف الاملال[1] وهؤلاء مثل العالم الصوفى الجامع على بن حرزهم المتوفى سنة ٥٥٠ والمتكلم أبى بكر السلاجى صاحب البرهانيـة فى علوم الاعتقاد ، كان يعد فى طبقة أبى المعالى الجوينى ؛ توفى سنة ٥٦٤، والمفسر المحدث ابن عبد الجليل القصرى المتوفى سنة ٦١٥ ، والمفسر الأصـولى أبى عبد الله المزدغى المتوفى سنة ٦٥٥ والمحدث الراوية ابن رشيد السبتى المتوفى سنة ٦٩٢ ، والعالم الصوفى الجامع الشيخ زروق المتوفى سنة ٨٩٩، والحافظ احمد بن يوسف الفاسى المتوفى سنة ١٠٢١ والحافظ أبى العلاء العراقى المتوفى سنة ١١٨٣ والمفسر المتكلم الشيخ الطيب ابن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧

ولا ننس أن ننبه إلى ما كان لعلوم القراآت من شأن كبير فى الكلية فقد كانت العناية بها شديدة فى كل عصر، وكان يتخصص فيها كثير من العلماء فضلا عن مشاركة جمهورهم فيها، لأن أوائلها كانت تتلقى فى الكتاتيب القرآنية التى ما كان يتولاها إلا كبار الأساتذة المتحققين بتلك العلوم وغيرها. تأتى هى الثانية بعد الفقه فى برنامج العلوم التى كانت تدرس فى القرويين وفى جميع المغرب. ويكفيك أنه كان لطلبتها مدرسة خاصة بهم هى مدرسة السبعين (أى القراء بالروايات السبع) الواقعة بإزاء مدرسة الأندلس والتى كانت قد درست معالمها وأغلقت منذ مدة ثم هى الآن قيد الاصلاح والترميم .

ومن نبغاء خريجى القرويين فى هـذه العلوم ميمون الفخار صاحب التحفة والدرة وغيرها المتوفى سنة ٧١٦ وابن برى صاحب الدرر اللوامع المتوفى سنة ٧٣١ والخراز صاحب مورد الظمآن المتوفى سنة ٨١٨ وسواهم كثير .

وأما علوم اللغة والأدب فقد ظلت الكلية رافعة رايتها منذ انبثاق فجر النهضة العلمية فى المغرب على عهد المرابطين إلى يوم الناس هذا . ومر عليها زمن لم يكن بنافسها معهد آخر أيا كان فى أداء رسالة الأدب العربى والقيام على حفظ تراثه من الضياع ، وذلك حين يقول الشيخ محمد بيرم الخامس فى كتابه (صفوة الاعتبار) : « لعمرى إن صناعة الانشاء فى الدول باللغة العربية كادت تكون الآن مقصورة على دولة مراكش »

ولقد درج فى الكلية من فطاحل علماء اللغة وكبار أهل الأدب ما بقى فخراً لها على مر السنين والأعوام ، مثل الشاعر الأديب يحيى بن الزيتونى الذى قهر ابن زيدون فى بلاط ابن عباد، والشاعر الباقعة ابن حبوس الفاسي ، والعلامة ابن رقية من ذرية المهلب بن أبى صفرة كان حجة فى الأدب وله كتاب فى الشعر والأنساب توفى سنة ٦٠٦ هـ . والشاعر المشهور أبى العبـاس

* انظر العدد ٢٦١

(١) كل ما نجمله هنا تجد تفصيله فى النبوغ المغربى .

الجراوى الذى يعد من مفاخر هذه العدوة ، وصاحب كتاب صفوة الأدب وديوان العرب المعروف بالحماسة المغربية الموجود مختصره فى مكتبة بالآستانة [1] توفى سنة ٦٠٩ بعد وفاة المنصور الموحدى مخدومه بنحو ١٤ عاماً خلاف قول ابن خلكان إنه توفى فى آخر أيامه . والشاعر الفيلسوف أبى العباس الجزنائى الذى كان محفوظه من شعر المحدثين فقط عشرين ألف بيت . توفى سنة ٤٧٩ ؛ والنحوى أبى عبد الله بن آجروم المشهور المتوفى سنة ٧٢٣ ؛ والنحوى اللغوى أبى زيد المكودى المتوفى سنة ٨٠٧ والنحوى أبى العباس القدومى المتوفى سنة ٩٩٢ ، والأديب الشاعر الناثر عبد العزيز الفشتالى ، مفخرة المغرب فى عصره ، المتوفى سنة ١٠٣٢ ؛ والنحوى محمد المرابط الدلائى المتوفى سنة ١٠٨٩ ؛ والشاعر الأديب ابن زاكور شارح الحماسة والقلائد وصاحب كثير من الكتب الأدبية القيمة المتوفى سنة ١١٢٠ ؛ والشاعر الرقيق ابن الطيب العلمى صاحب الأنيس المطرب المعروف المتوفى سنة ١١٣٤ ؛ وإمام أهل اللغة في عصره أبى عبد الله محمد بن الصميلى صاحب الحاشية الفريدة على القاموس التى استقى منها كثيراً السيد مرتضى صاحب (التاج) ، وعنه يعبر بشيخنا وله عشرات الكتب غيرها فى اللغة والأدب توفى سنة ١١٧٠ ، إلى غير ذلك ...

بقى الكلام في العلوم الفلسفية بمعناها القديم الذى يشمل الرياضيات والطبيعيات ومنها نوعان لهما ماض زاهر فى الكلية ، فمنذ انضمام الأندلس إلى المغرب فى أيام المرابطين ، جعل الاحتكاك بأهل الجزيرة يعمل فعله فى توجيه أنظار أهل هذه البلاد إلى الأخذ بأسباب تلك العلوم ، وكان أن انتقل إلى هنا — بانتقال الدولة — كثير من علمائها المتحققين بأجزائها فتهافت عليهم طلبة القرويين يقتبسون من مشكاتهم ويأخذون بأدواتهم فما لبثوا أن شاركوهم فى جميع تلك التعاليم ونظروا إليها نظرتهم ونبغ منهم أفراد كثيرون كان لهم قياس « حس » على فنون من العلم الطبيعى والرياضى والإلاهى وآثار جمة فى جميع ذلك وما برحوا عاملين على بثها ونشرها والتواصى بتبليغها وتلقينها لمن يأتى بعد جيلاً فجيلا حتى تأدت بقية منها إلى العصر الحاضر فى مظهر من البلى والقدم لا يُرضى أنصارها ومحبيها وإنما كان ما تحت ذاك المظهر لا يزال يحوى كثيراً من الفوائد القيمة والحقائق العلمية الثابتة

(مدينة فاس التى توجد بها جامعة القرويين)

فمن رسل الثقافة العلمية من أهل الأندلس إلى المغرب أبو بكر ابن باجة الفيلسوف والعالم الطبيعى والرياضي والطبيب والموسيقار المشهور ، وأبو العلاء بن زهر الطبيب البارع المدقق فى شتى الأمراض ، وابنه أبو مروان صاحب كتاب التيسير في المداواة والتدبير ، والذى أثر تأثيراً بليغاً فى الطب الأوروبى بترجمة كتبه وهو ميت فكيف يكون تأثيره فى المغرب وهو حى ؟ وأبو بكر ابن طفيل الفسكى والطبيب والفيلسوف المشهور صاحب قصة حى بن يقظان وأبو الوليد بن رشد الذى ما أثر أحد تأثيره في نهضة العلوم بأوربا . وقد كان فى بلاط الخليفة الموحد يوسف ابن عبد المؤمن الذى بالغ فى رعايته وإكرامه وهو الذي حمله على شرح كتب أرسطو وتلخيص فلسفته

ومن الأفراد النابغين فى هذه العلوم من أبناء البلاد الذين درجوا من الكلية وتخرجوا فيها العلامة أبو الياسمين كان فرداً فى العلوم الرياضية من هندسة ونجوم وعدد ، وله أرجوزة فى الجبر قرئت عليه بأشبيليه سنة ٥٨٧ وكان هو الذى نشر ذلك العلم بها . ويوسف بن ميمون الاسرائيلى الطبيب والرياضى الكبير قرين موسى بن ميمون وصاحبه بمصر واجتمع هو وإياه على إصلاح هيئة ابن أفلح الأندلسى . وهذا وإن لم يدرس

(١) شاع فى الأوساط العربية وقد قيل إنه ضاع فلذلك نبهنا عليه . ونقول بهذه المناسبة إننا بذلنا جهوداً كبيرة للحصول على هذا المختصر ووسطنا فى ذلك المجمع العلمى العربى ولا زلنا لم نظفر به

بالقرويين فإن تخرجه على يد علمائها لأنه من أهل فاس وبها درس كما يقول ابن القفطي . وابن البناء المدوي ، العلامة الرياضي والفلكي والطبيب المشهور له موضوعات كثيرة في الحساب والجبر والفلك وغير ذلك وتفوق على كثير من علماء الرياضة قبله سواء في الشرق أو المغرب وخاصة في حساب الكسور ، توفي سنة ٧٢١ ؛ وابن أبي الربيع اللجائي العالم الرياضي الفلكي المبدع له أعمال متفوقة وآلات نافعة في علم الهيئة ، وكانت وفاته سنة ٧٧٣ والعلامة الجادير صاحب روضة الأزهار في علم الهيئة المتوفى سنة ٨١٨ ؛ وأبي القديم الوزير الطبيب والعالم النباتي المشهور صاحب مدينة الأنوار في شرح ماهية العشب والأزهار ، وكان طبيب المنصور الذهبي الخاص . وأبي القاسم الغول العالم الرياضي والطبيب مؤلف كتاب حافظ المزاج ولافظ الأمشاج المتوفى سنة ١٠٥٩ وابن حميدة المطرفي صاحب القرب في الهيئة المتوفى سنة ١٠٠١ ، وأبي سليمان الشرودائي الفيلسوف والرياضي البارع له أعمال وآلات لم يسبق بها في الفلك توفي سنة ١٠٩٥ وعبدالرحمن المباني العلامة الطبيبي والرياضي والفيلسوف مؤلف الأنتوم في مبادئ العلوم تكلم فيه على زهاء (١٥٠) علماً واستوعب نظرياتها واستوفى حدودها فهو من الموسوعات العظيمة الفائدة توفي سنة ١٠٩٦ ، وعبد الوهاب أدران الطبيب المدقق صاحب الذيل على أرجوزة ابن سينا وغيره من الكتب الموضوعية المتوفي سنة ١١٥٩ ، وعبد القادر بن شقرون صاحب الشقرونية وغيرها في الطب، وكثير غير هؤلاء لم نشر إلى أسمائهم اختصاراً لحصول المقصود من الرسالة على ما قامت به هذه الجامعة في الماضي من نشر الثقافة العلمية وتأدية رسالة العربية كما حلت. ولهذا لا يستغرب أن يؤمها الطلبة من أقصى بلاد أوربا وغيرها ، فهناك في تلك العصور التي يدعونها عن حق — بالعصور المظلمة — لم يكن قد تقرر للعلم مدلول بعد . وقد اشتهر كثير ممن درس فيها من الأجانب وكان لهم تأثير قوي على العقلية الأوربية في ذلك الحين ، ومن أعظمهم البابا سلفستر ، الذي هو أول من أدخل إلى أوربا الأعداد العربية التي لا تزال مستعملة في المغرب إلى الآن وتعرف بحروف (الغبار) أو (بالغباري) بدون إضافة

ثم إن نظام الدراسة في القرويين لا يختلف عما هو عليه في الجامعات الاسلامية الأخرى ، كما لم يختلف عما كان عليه منذ الأزمان المتطاولة : يجلس الأستاذ فيحلق عليه الطلبة ويأخذ في إملاء درسه الذي يكون في الغالب تفسيراً لمتن وتقريراً لأقوال شراحه ونظراً فيما بينها من الاختلاف ، وقد يتجر به الحديث إلى الخروج عن الموضوع ، إنما إذا كان ضليعاً في مادته واسع الاطلاع عظيم المحفوظ فلا خوف على الطالب من ذلك الخروج ، بل إنه ليستفيد منه ما لا يقدر له أن يجده في كتاب أو يهتدي إليه بمجرد فهمه

وإذا كان الطالب ممن لازم الحضور بمجلس أستاذ ما ، وظهرت عليه مخايل النجابة فانه يحق له أن يتقدم إلى ذلك الأستاذ بطلب أجازة تكون — كأنها أهم ما أنشأه في حياته الدراسية — بمثابة أطروحة (thèse) منها تتقرب منزلته في التحصيل

(يتبع) « طنجه » عبد الله كنون الحسني

تحت الطبع :

حيـــاة الرافعي

للاستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة

ثمن الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً

أطلب مؤلفات

الأستاذ النشاشيبي

وكتابه

الإسلام الصحيح

من مكتبة الوفد ، شارع الفلكي (باب اللوق)

ومن المكتبات العربية الشهيرة